محبوب
الإصدار الثامن والثلاثون

نَاقِفُ حَنْظَل
كلماتٌ في تأبين الأعلام (٤)

شيخُ التراث العُماني

سالم بن حمد الحارثي

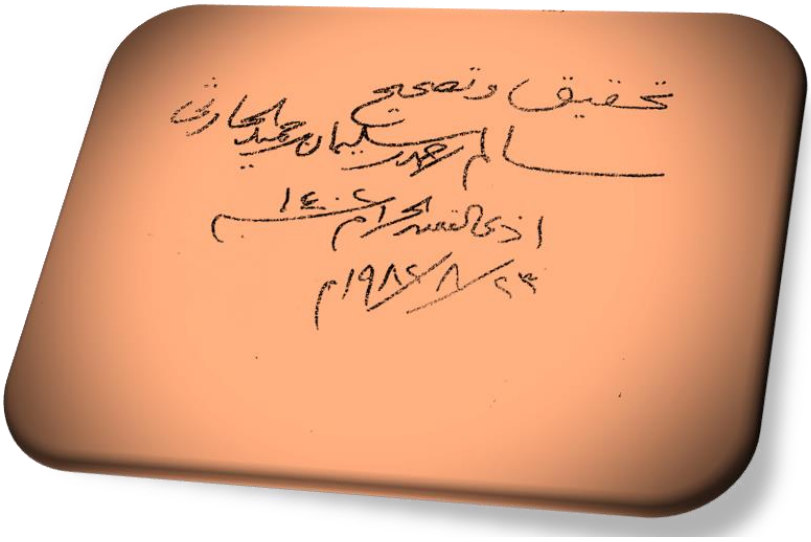

بقلم
سُلطَان بن مُبارك بن حَمد الشَّيبَانِيّ

سلسلة: نَاقِفُ حَنْظَل؛ كلماتٌ في تأبين الأعلام
الحلقة الرابعة
شيخُ التراث العُماني سالم بن حمد الحارثي

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الرقمية الأولى
صفر ١٤٤٤هـ/ سبتمبر (أيلول) ٢٠٢٢م

محبوب للنشـــــر الرقمي
مسقط/ سلطـــنة عُمان
البريـــد الإلكـــتروني:
mahboub.pd@gmail.com

شيخُ التراث العُماني

سالم بن حمد الحارثي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله،

وعلى آله وصحبه ومن والاه

• سالم بن حَمَد الحارثي[١]:

زُرتُه أوَّلَ مرةٍ صبيحةَ الجمعة ٦ شعبان ١٤٢١هـ/ ٣ نوفمبر ٢٠٠٠م في مَنْزِله الواقع خلف مجلس (بيت البرج) في بلدة المُضَيْرِب من شرقية عُمان. كان سَمْحًا بشوشًا متواضعًا، حتى لقد خجلتُ من حسن تعامله معنا. زرتُه عدة مرات بعدها فكنتُ أجده على الحال نفسها: كتبٌ ومخطوطاتٌ وأوراق، تتحلَّقُ حول شيخٍ وقور؛ ذي عمامةٍ بيضاء مطويَّةٍ إلى الأعلى، ولحيةٍ كثّة مَهيبة، كأنما اجتمعتْ في ملامِحِه أصالةُ التراث العُمانِيّ وعراقته.

---

[١] أصل هذه المادة: كلمة كتبتها للمشاركة في الملف المخصص لتأبين الشيخ سالم بن حمد الحارثي؛ بمجلة **(الواحة)** العُمانية، السنة الثانية، العدد السابع عشر: جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ/ يوليو ٢٠٠٦م. ص٢٢-٢٣. وأجريتُ عليها هنا بعض التعديلات والزيادات. وأصل الكلمة بعنوان: **(بيننا وبين الشيخ سالم بن حمد الحارثي.. سنواتُ كفاح)**. وحقُّ الشيخ أن يُكتب عنه سفرٌ حافل.

كنتُ أسأله فيجيبني دون تردُّد، ولا يبالي أن يَدخل مرة تلو المرة إلى مكتبته ليستخرج من نفائسها ما يؤيّد جوابَه ويُطفئ غليلَه وغليلَ سائله، وربّما تَحَرَّكَ فُضولي إذا رأيتُ بين يديه وثيقةً مهمّة يقرأُها، فلا أكاد أطلبها حتى يعطيني نسخة منها، وما خرجتُ يوما من عنده خالِيَ الوفاض.

أراني مرةً خَتْمًا عُمانيا على ظهر مخطوطٍ عنده؛ مؤرَّخًا في القرن العاشر الهجري، وقال: هذا مؤشِّرٌ حضاريٌّ لا بُدّ أن يُعتنى به. كانت تستهويه مثل هذه الفوائد الشوارد، وتَشُدّ انتباهه، فيجمعها ويدوّنُها، ويُخرج من بطون المخطوطات ما انْمَحَى خطُّه وصَعُبَتْ قراءته، فيعيد نسخه خشية ذهابه، وربّما استعار مخطوطًا من هذه المكتبة أو تلك ليقارن به مخطوطاته بُغية تصحيحها، ومَنْ تأمّلَ مكتبته قلّما يَجِدُ مخطوطًا فيها لَمْ يُسَطِّرْ عليه شيئًا من تعليقاته النفيسة.

إنّها صحبة طويلة مع الكتب، وخبرة عميقةٌ بِخَباياها وخفاياها، ولَهَفٌ شديد إلى تتبعها واقتناص طرائدها، لا يُعَـبِّرُ عنه مثلُ قولِه لِي ذات مرة: أنا لا أعيش دون مَخْطُوطاتِي! وتأمَّلْ كيف ينظر إلى مخطوطاته حين يقول في بعض كتاباته: «حتى إذا قلتُ إنها جوهرُ عَيْنَيَّ فغيرُ مُبَالِغ!».

سألتُه عن شعاره في الحياة، فقال:

وإِنَّمَا بِوَحْــدَتِي أَنِسْتُ ... وَقَعْرَ بَيْـتِي عَنْهُمُ لَزِمْتُ

فَزادَ أُنْسِي ونَمَـا السُّرُورُ ... بَلْ زَال بانْفِرَادِيَ المَحْذُورُ

تلك كانت خلاصة لقاءاتي معه في سطور موجزة، ربّما تُوجِزُ في الوقت ذاته معالِمَ شخصية الشيخ «**سالم بن حَمَد بن سليمان الحارثي**» وملامح مسيرته وعطائه، التي بدأت يوم الرابع من ذي القعدة ١٣٥١هـ/ ٢٨ فبراير ١٩٣٣م، ولَمْ تنته بغياب شخصه الطاهر ظُهْرَ يوم الأحد ٢ ربيع الآخر ١٤٢٧هـ/ ٣٠ إبريل ٢٠٠٦م، بل تَظَلُّ بإذن المولى نبراسًا للأجيال الحاضرة واللاحقة.

وإذا تَحَدَّثْنا عن الأجيال فإنني أكتب اليوم عما هو بيننا وبين الشيخ سالم الحارثي، أو بعبارةٍ أدقّ: عَمّا هُو بين جيلنا وجيل الشيخ سالم الحارثي.

• • •

بَيْـنَنَا وبَيْنَ الشَّيْخِ سَالِمِ بنِ حَمَدٍ الحَارِثِيِّ عصرٌ يَحْلُو للبعض أن يُسَمِّيه عَصْرَ الأوراق الصفراء، يوم كانت المخطوطاتُ تَصْنَعُ عقولَ الرجال، قبل أن تتحوّل إلى تُحَفٍ فنّية تُزَيَّنُ بِهَا الرُّفوف والخزائن. يومَ كان الطالبُ يفتح عينيه على كُتَّاب القرية، يَدرس فيه القرآن مع المعلّم، يتلقاه شفاهًا من لسانه كلمةً كلمة، أو يكتب وراءه على لوحه حرفًا بِحَرْفٍ. يوم كانت عيونُ الأطفال لا تكتحلُ بنسخةٍ مكتوبة من المصحف إلا مَنْ كان مَحظوظًا منهم. وبعد خَتْمِ القرآن يدرس التلميذ على شيخٍ مُتونًا علمية قد يَحْفظها كلها دون أن يطّلع على نَصٍّ مكتوب لأحدها، وربّما قرأ على شيخه مئاتِ (الأوراق الصفراء) من مُجلّدات الأصول والفقه والأدب قراءةً هي الأولى والأخيرة، ثُمّ لا تقع عينُه عليها بعد ذلك.

دارت الأيام، وصرنا نسمع القرآن عبر الأشرطة السمعية، وأقراص الكمبيوتر، وأثير الإذاعة والتلفاز، ونقرؤه من صفحاتٍ فاخرة مذهّبة، تتزين بِهَا مكاتبُنا ومجالسنا، أمّا الكُتُب فالحصول عليها كالحصول على الماء، وربّما وَجَدَ طالبُ العلم مُرادَه منها بِنَقْرَةٍ واحدة على الإنترنت، بل ربّما اضطجع على سريره ووضع رأسه على وسادته الناعمة ليُقَلِّبَ عشرات الكتب المحفوظة في هاتفه!

• • •

بَيْـنَنَا وبَيْنَ الشَّيْخِ سَالِمِ بنِ حَمَدٍ الحَارِثِيِّ عصرٌ يُسَمَّى عصر النَّسْخ، كان فيه ناسخُ الكتب يُحَضِّرُ الدَّواةَ والمداد والأقلام، ويَجلس ليلًا على ضوء السراج القديم، يَكتُب العلمَ المفيد النافع. إنّها مَشَاهِدُ حيّةٌ من أيام الماضي، تتخللها نفحاتٌ عطرة من عبق التاريخ، تربطه بتراث الأجداد قلبًا وقالبًا، وتَجعله يعيش لحظاتٍ عاش الأوّلون مثلها، فكأنما هو حلقةٌ في سلسلة واحدة، تَسْلُكُ الدربَ نفسه، وتقتفي الخُطى ذاتَها.

لقد أدرك الشيخُ ذلك وعايشه عن قربٍ، وجلسَ على كرسي النَّسْخ الذي جلس عليه مَنْ سبقه، واستشعر جلالةَ التراث وعظَمَتَهُ ومكانته، والجهد الذي بَذَلَهُ الآباء ليصل إلى الأبناء. وَجَدْتُه مرّةً ينسخ كتابا مطبوعًا، فرأى عَلَيّ علاماتِ الاستغراب بادِيَةً. فقال: هكذا تعلّمْتُ أن أعرف قيمته. قلتُ: وَلَّى زمان النسخ. قال: عِنْدَكُم، أمّا أنا فلا يقطعني عنه إلا أن

تكلّ يدي. وكَتَبَ مرّةً في بعض رسائله: «وقد نسختُ كثيرا بيدي حتى فقدتُ غالب بصري».

ولقد كانت أكثرُ مطالعاته على هذا النحو، يَنْسَخُ ويقرأ في آنٍ، حتى خَبر خُطوطَ النُّسَّاخ والعلماء فكان يُمَيّز بينها كما يُمَيّز بين أبنائه وأقاربه!

• • •

بَيْـنَنَا وبَيْنَ الشَّيْخِ سَالِمِ بنِ حَمَدٍ الحَارِثِيِّ عصرُ الطباعة القديمة، يومَ لَمْ تَكُنْ في عُمانَ مطابعُ ودورُ نَشْرٍ، ويوم أن كانت الطباعة عُملةً نادرةً صعبةً لا ينتفعُ بِهَا إلا القلةُ القليلة، قبل أن تصبح الآن سلعةً تجارية مربحة يتعارك فيها الأَقْرَنُ والأَجْلَحُ.

لقد بذل الشيخ جهده في انتقاء مُهِمّات الكتب التراثية، ثم اتصل بِمَنْ يعرفه من الأعلام المُحَقّقين لمراجعتها وضبطها، ثم وَجَّهها إلى دُور النشر في الشام ومصر لطباعتها وتوزيعها، وكانت له رحلاتٌ عديدة في هذا الإطار.

ولَمَّا ظهرت وزارةُ التراث والثقافة إلى الوجود، وأعلنتْ مُبَادَرَتَهَا إلى إخراج كتب التراث كان الشيخُ من أقدم المسهمين في نَهْضَتِها والدافعين لحركتها، فراجع عشرات الكتب، وتَضَلَّعَ بِمُهِمَّةِ العرض والتصحيح، وتَصَدَّتْ هِمَّتُهُ لكُبْرَيَاتِ الموسوعات العلمية العُمانية كبيان الشرع والمصنف والضياء ومنهج الطالبين، وما عداها كثيرٌ من المصنفات ذوات الجزء والجزأين والثلاثة.

واليومَ تُفْرِزُ لنا المطابع من (خلاطاتِهَا المتطوّرة) كتبًا لا حَصْرَ لَهَا في قالَبٍ ظاهري جميل، وتَبْرُزُ بين الفينة والفينة في ساحة التراث أَسْمَاءُ مُحَقِّقين؛ لعلَّ أولَ كلمةٍ يُتقنونَهَا هي الانتقادُ على جُهودِ مَنْ سَبَقَ. وهي في الوقت ذاته أسهلُ كَلِمَة!.

• • •

بَيْـنَنَا وبَيْنَ الشَّيْخِ سَالِمِ بنِ حَمَدٍ الحَارِثِيِّ عصرُ الدراسات الجامعيّة الذي ما كان للعُمانيين نصيبٌ وافرٌ فيه منذ ثلاثة عُقود، أمّا اليوم فقد حَطَبَ في حَبْلِه حُطَّابُ الليل وحُطَّاب النهار، تَحْتَ شعار الدراسات العليا.

لَمْ يُدْلِ الشيخُ سالم بِدَلْوِهِ في هذا المجال، لكنه كان مقصدًا للدارسين من أصحاب الشهادات بِمُختَلِف مستوياتِهَا، ومقصدًا للباحثين عامة، ينهلون من معينه، ويفتح لَهُم بِمِفْتاح خبرته وتَجربته الطويلة بابَ التراث الواسع. وهو كما عَهِدْتُه وعَهِدَهُ كُلُّ قاصدٍ لَهُ ما كان يردّ باحثًا قدر استطاعته، يُجيبه شفاهًا أو كتابة أو يرشده إلى مصادره أو يمنحه من كنوز التراث ما يبتغيه.

ولعل أوّلَ مَنْ دَقَّ باب الشيخ سالم الحارثي طالبًا الاستفادة في دراسة علمية جامعية هو الدكتور الليبي النَّفُوسي عمرو خليفة النامي؛ الذي أعَدَّ أطروحةً قيّمة يَعِزُّ وُجودُ نظيرٍ لها اليوم، وقدّمها بجامعة كمبردج في بريطانيا أثناء فترة دراسته بِهَا بين سنتي ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م – ١٣٩١هـ/

١٩٧١م، ونال بِهَا درجة الدكتوراه في الفلسفة والدراسات العربية والإسلامية.

وهي أطروحة باللغة الإنجليزية عنوانُها: «تطوّر الفكر الإباضي ودراسة نظام الولاية والبراءة عند الإباضية» طُبِعَتْ مترجمةً إلى العربية مؤخّرًا، ونقرأ في فاتحتها كلمة شكر للشيخ سالم بن حمد الحارثي على ما قدّمه للباحث من مَخطوطات عُمانية ثَمينة أفادتْهُ في دراسته، ولو قلّبنا صفحات الأطروحة لوجدْنا إشاراتٍ عديدة إلى الشيخ سالم كلما استفاد النامي من إحدى مخطوطاته، بل تأثّر النامي به في بعض آرائه العلمية فتابعه عليها.

ولقد ظل الشيخ سالم الحارثي يُثني على النامي ويعتزّ بِمَا قَدَّمه لَهُ من معلوماتٍ ومخطوطات، ثم زادت الرابطةُ بينهما بعد تلاقيهما عقب رجوع النامي إلى بلاده مكملا دراسته. ومِنْ عجيب الاتفاق أن تكون للرجلين غايةٌ مشتركةٌ وتَوَجُّهٌ واحد، جَسَّداه في دراستين تشابَهَتا في المضمون إلى حدّ كبير، وإن اختلفتا في المنهج والأسلوب: دراسة النامي بالإنجليزية المشار إليها آنفًا، وقد استفاد منها كلُّ ناطقٍ بالإنجليزية من مستشرقين وغيرهم ممن يبحث في مجالِها. ودراسة الشيخ الحارثي الممثَّلة في كتابه الرائع (العقود الفضية) الذي استفاد منه كلُّ باحثٍ بالعربية من عمان وخارجها.

• • •

بَيْـنَنَا وبَيْنَ الشَّيْخِ سَالِمِ بنِ حَمَدٍ الحَارِثِيِّ سنواتُ كفاحٍ؛ ربّما نَسِيَها الشيخُ نفسُه، أو تَجاهلها فلا يذكرها ولا يتفاخرُ بِهَا أمام غيره، وهو في الحالين معذورٌ. أمّا في الأولى فإنه يرى في شباب الجيل الحاضر صحوةً مباركة تُنسيه قسوة الأيام، وتدعوه للفخر والاعتزاز. وأمّا الثانية فَمَرَدُّها إلى سِمَةٍ عرفناها في أشياخنا لا تَنْفَكُّ عنهم، ألا وهي التواضع.

وإذا كان العذرُ حاصلا له في الحالين فإن النسيان والتجاهل إذا صَدَر مِنّا كان جريمةً لا تُغتفر. كيف ننسى مَنْ عَلَّمَنا أن نقف وقفةً شامِخَةً، ونَخْطُو خُطىً ثابتة؟ كيف ننسى مَنْ كانت عَثَرَاتُه - إن صَحّ التعبير - خطوةً لا بد منها في طريقنا إلى جادّة الصواب؟ أنَّى لنا أن نَدَّعي حَمْلَ أمانة التراث ونحن لا نَقْدِرُ رجالا حَمَلُوها على أكتافهم ووضعوها نُصْبَ أعينهم؟

أمّا التجاهل فهو تَلَبُّسٌ بِجَريمةٍ مع التعمُّدِ والإصرار. وإذا فعلناه فلينتظر العالَمُ أولادَ الأوراقِ البيضاء، والطبعاتِ الفاخرة، والشهاداتِ البَرّاقة، والعُقولِ الفارغة![٢]

---

[٢] رحل الشيخ سالم وحمل معه أسرارا كثيرة عن حركة إحياء التراث العماني خاصة والإباضي عامة، وليته وجد فراغا لتوثيق تجربته الحافلة. قبل وفاته بسبعة أشهر وقليل بعثتُ له رسالة تتضمن تساؤلات في هذا الإطار، وما زلتُ أؤمل نفسي بالظفر بالجواب، لعله كتب شيئا وما زال مندسًّا بين أوراقه!.

الشيخ سالم في وادي مزاب، وعلى يمينه الشيخ ناصر المرموري

الشيخ سالم مُسَلِّمًا السلطان قابوس رسالةً داعيًا إياه فيها إلى طباعة جامع ابن جعفر

500 بيسة
AL-WAHA
الواحة
العدد السابع عشر- يوليو ٢٠٠٦
السنة الثانية
ورحل العالم الشيخ سالم بن حمد الحارثي
بعد ٧٣ عاما من العطاء الموسوعي
اخوانه وزملاؤه وأبناؤه وتلاميذته يتحدثون عنه
ثروته العلمية وتفاصيل حياته في متناول الجميع
كان في خدمة الناس من صلاة الفجر حتى العشاء
دائرة عطائه اتسعت حتى خارج عُمان
كان يطلب العلم حتى في أيامه الأخيرة
حفيدة بلقيس
المرشحة لرئاسة اليمن
تتحدث إلى «الواحة»
(جرس) صفحات جديدة
على الساحة النبطية
تركي
فاز بالبلبل الذهبي
ويطرق باب النجومية
محمد الخضرا
أحلم بتطوير
الزي العماني
مقال ساخن
عن الدراما في عُمان
أسرار إتقان اللغة الإنجليزية

الراحل الباقي

سنوات كفاح

سلطان بن مبارك الشيباني

زُرتُه أوّلَ مرة صبيحةَ الجمعة ٦ شعبان ١٤٢١هـ/ ٣ نوفمبر ٢٠٠٠م في مَنزِله الواقع خلف مجلس (بيت البرج) في بلدة المضيرب من شرقية عُمان. كان سَمْحًا بشوشًا متواضعًا، حتى لقد خجلتُ من حسن تعامله معنا. زرتُه عدة مرات بعدها فكنتُ أجده على الحال نفسها: كتبٌ ومخطوطاتٌ وأوراق، تتحلّقُ حول شيخٍ وقور؛ ذي عمامة بيضاء مطويّة إلى الأعلى، ولحية كثّة مَهيبة، كأنما اجتمعتْ في ملامحِهِ أصالةُ التراث العُمَاني وعراقته.

كنتُ أسأله فيجيبني دون تردُّد، ولا يبالي أن يَدخل مرة تلو المرة إلى مكتبته ليستخرج من نفائسها ما يؤيّد جوابه ويُطفئ غليلَه وغليلَ سائله، وربّما تَحرّكَ فُضولي إذا رأيتُ بين يديه وثيقةً مهمّةً يقرؤها، فلا أكاد أطلبها حتى يعطيني نسخة منها، وما خرجتُ يوما من عنده خاليَ الوفاض.

أراني مرةً خَتْمًا عُمانيا على ظهر مخطوط عنده؛ مؤرّخًا في القرن العاشر الهجري، وقال: هذا مؤشّرٌ حَضاريٌ لا بُدّ أن يُعتنى به. كانت تستهويه مثل هذه الفوائد الشوارد، وتَشُدّ انتباهه، فيجمعها ويدوّنُها، ويُخرج من بطون المخطوطات ما انْمَحَى خطُّه وصَعُبَت قراءته، فيعيد نسخه خشية ذهابه، وربّما استعار مخطوطًا من هذه المكتبة أو تلك ليقارن به مخطوطاته بُغية تصحيحها، ومَنْ تأمّلَ مكتبته قلّما يَجِدُ مخطوطًا فيها لَمْ يُسَطِّرْ عليه شيئًا من تعليقاته النفيسة.

أراني ختما عمانيا على ظهر مخطوطة من القرن العاشر الهجري فقال هذا مؤشر حضاري لا بد أن نعتني به

إنّها صحبة طويلة مع الكتب، وخبرة عميقةٌ بخَبَاياها وخفاياها، ولَهَفٌ شديد إلى تتبعها واقتناص طرائدها. لا يُعبّرُ عنه مثلُ قوله لي ذات مرة: أنا لا أعيش دون مَخْطُوطاتي!

سألتُه عن شعاره في الحياة، فقال:

وإنَّما يُوحِشُني أُنسِي ... وَقَفْرَ بَيْتِي عَنْهُمُ لَزِمتُ

فَزادَ أُنسِي ونَما السُّرور ... بَلْ زَالَ بانْفِرادِيَ المَحْذُور

تلك كانت خلاصة لقاءاتي معه في سطور موجزة، ربّما تُوجزُ في الوقت ذاته معالمَ شخصية الشيخ «سالم بن حمد بن سليمان الحارثي» وملامح مسيرته وعطائه، التي بدأت يوم الرابع من ذي القعدة ١٣٥١هـ/ ٢٨ فبراير ١٩٣٣م، ولَمْ تنته بغياب شخصه الطاهر ظُهْرَ يوم الأحد ٢ ربيع الآخر ١٤٢٧هـ / ٣٠ إبريل ٢٠٠٦م، بل تَظَلُّ بإذن المولى نبراسًا للأجيال الحاضرة واللاحقة.

وإذا تَحدّثنا عن الأجيال فإنني أكتب اليوم عما هو بيننا وبين الشيخ سالم الحارثي، أو بعبارة أدقّ: عمّا هو بين جيلنا وجيل الشيخ سالم الحارثي.

❖❖❖

بَيْنَنَا وبَيْنَ الشَّيْخ سَالِم بن حَمَد الحَارِثيِّ عصرٌ يَحلُّو للبعض أن يُسمّيه عَصرَ الأوراق الصفراء، يُوم كانَت المخطوطاتُ تَصْنَعُ عقولَ الرجال، قبل أن تتحوّل إلى تُحَف فنّية تُزيّنُ بها الرُّفوف والخزائن. يوم كان الطالبُ يفتح عينَيه على كُتّاب القرية. يَدرس فيه القرآن مع المعلّم، يتلقاه شفاهًا من لسانه كلمةً كلمة، أو يكتب وِراءه على لوحه حرفًا بحَرْف. يوم كانت عيونُ الأطفال لا تكتحل بنسخة مكتوبة من المصحف إلا مَنْ كان مَحظوظًا منهم. وبعد خَتْم القرآن يدرس التلميذ على شيخٍ مُتونًا علمية قد يَحفظها كلها دون أن يطّلع على نَصٍّ مكتوب لأحدها، وربّما قرأ على شيخه مئات (الأوراق الصفراء) من مُجلّدات الأصول والفقه والأدب قراءةً هي الأولى والأخيرة، ثُمّ لا تقع عينُه عليها بعد ذلك.

دارت الأيام، وصرنا نسمع القرآن عبر الأشرطة السمعية، وأقراص الكمبيوتر، وأثير الإذاعة والتلفاز، ونقرؤه من صفحات فاخرة مذهّبة، تتزين بها مكاتبُنا ومجالسنا، أمّا الكُتُبُ فالحصول عليها كالحصول على الماء، وربّما وَجَدَ طالبُ العلم مُرادَه منها بنَقْرة واحدة على الإنترنت، بل ربّما اضطجع على سريره ووضع رأسَه على وسادته الناعمة ليُقلّب عشرات الكتب المحفوظة في هاتفه!

❖❖❖

بَيْنَنَا وبَيْنَ الشَّيْخ سَالِم بن حَمَد الحَارِثيِّ عصرٌ يُسَمّى عصر النَّسْخ، كان فيه نَاسِخُ الكتبُ يُحضّر الدَّوَاةَ والمداد والأقلام، ويَجلس ليلاً على ضوء السراج القديم، يَكتب العلمَ المفيد النافع. إنّها مَشَاهدُ حيّةٌ من أيام الماضي، تتخللها نفحاتٌ عطرة من عبق التاريخ، تربطه بتراث الأجداد قلبًا وقالبًا، وتَجعله يعيش لحظات عاش الأوّلون مثلها، فكأنما هو حلقةٌ في سلسلة واحدة، تَسلُكُ الدربَ نفسه، وتقتفي الخُطى ذاتَها.

لقد أدرك الشيخُ ذلك وعايشه عن قرب، وجلس على كرسي النسخ الذي جلس عليه مَنْ سبقه، واستشْعر جلالةَ التراث وعظَمَتَه ومكانته، والجهد الذي بَذَلَهُ الآباء ليصل إلى الأبناء. وَجَدتُه مرّةً ينسخ كتابا مطبوعًا، فرأى عَلَيّ علامات الاستغراب باديةً. فقال: هكذا تعلّمتُ أن أعرف قيمته. قلتُ: وَلَّى زمان النّسخ، قال: عنْدَكُم، أمّا أنا فلا يقطعني عنه إلا أن تكلّ يدي.

ولقد كانت أكثر مطالعاته على هذا النحو، يَنْسَخُ ويقرأ في آن، حتى خَبَر خُطوطَ النُّسّاخ والعلماء فكان يُميّز بينها كما يُميّز بين أبنائه وأقاربه!